للآذان وأين أسماع من أسماع، كما لها أبصار كأبصار ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[١] «وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق حجب النور فتصل إلى معدن العظمة».

وقد تعني «لتصغى» غاية الصغي لـ«يُوحِي بَعْضُهُمْ»... كما هي غاية الابتلاء لـ«جعلنا» وأين غاية من غاية، فإنها في ربانيتها خيِّرة ابتلاء، وفي شيطنتها شريرة بلاءً!.

وهنا المعطوف عليه كـ«ليضلوا بعضهم بعضاً بزخرف القول ولتصغى إليه زخرف القول» - ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ...﴾ صغياً للقلوب المقلوبة والأفئدة المتفئدة بنيران الضلالة والمتاهة وبالنتيجة ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾: «ما يفترون» ومن ثم ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾ هؤلاء الصاغون الراضون ﴿مَا هُم﴾ أولئك الشياطين ﴿مُّقْتَرِفُونَ﴾ من تخلُّفات فاتكة هاتكة لحرمات الله أصلياً وفرعياً.

فـ«تعوذ بالله من شر شياطين الجن والإنس»[٢] تعوذاً حقيقياً لئلا تكون ممن قال الله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ...﴾ - ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ...﴾[٣] بل تكون ممن قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٤] وصغيُ الباطل وسقي الحق بصيغة للحق هما غايتان في خِضم الابتلاء لذلك الجعل الحكيم.

فليست وساوس شياطين الإنس والجن بالتي تسيِّر القلوب إلى

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.
(٢) الدر المنثور ٣: ٣٩ - أخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي أمامة قال: «قال رسول الله ﷺ يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الجن والإنس قال يا نبي الله وهل للإنس شياطين؟ قال: نعم شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً».
(٣) سورة الحج، الآية: ٥٣.
(٤) سورة الحج، الآية: ٥٤.

شيطناتهم، إلّا القلوب المقلوبة من ذي قبل، وأما القلوب الصافية الضافية بمعرفة الله فتزداد إيماناً وإيقاناً: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[١].

شياطين الإنس هنا يتقدمون ذكراً على شياطين الجن حيث البعض منهم أشطن من أولاء «وجوههم وجوه الآدميين وقلوبهم قلوب الشياطين»[٢] نفاقاً عارماً في شيطناتهم، وقد يروى عن الرسول ﷺ «هم شر من شياطين الجن»[٣].

ذلك، وإنهم بصورة واسعة على دركاتهم «من لم يجعله الله من أهل صفة الحق فأولئك هم شياطين الإنس والجن»[٤].

وترى شياطين الجن هم - فقط - من ذرية الشيطان الرجيم؟ أم ومن ذرية سائر الجن؟، «أتتخذونه وذريته أولياء وهم لكم عدو» تؤيد الأوّل، فسائر الجن ليسوا من الشياطين مهما فسقوا، فهم طرائق قِدَد، لا يولد شيطان منهم إلّا من شيطان: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾[٥].

ذلك مهما كان الشيطان الأول هو من الجن: ﴿. . . إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[٦].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٢) نور الثقلين ١: ٧٥٩ في كتاب الخصال عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الإنس على ثلاثة أجزاء فجزءٌ تحت ظل العرش يوم لا ظل إلّا ظله وجزؤٌ عليهم الحساب والعذاب وجزؤٌ وجوههم وجوه الآدميين وقلوبهم قلوب الشياطين.

(٣) تفسير الفخر الرازي ١٣: ١٥٤ روي عن النبي ﷺ أنه قال لأبي ذر: «هل تعوذت بالله من شر شياطين الجن والإنس؟ قال قلت: وهل للإنس من شياطين؟ قال: نعم هم. . .».

(٤) نور الثقلين ١: ٧٥٩ الكافي بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام: «فإن من لم يجعله الله. . .».

(٥) سورة الجن، الآية: ١١.

(٦) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

فرغم أن في الإنس قد يولد شيطان من مؤمن أو مؤمن من شيطان، فليس في الجن هكذا توالد، فإنما يولد شياطين الجن من أنفسهم، والوالد الأول فيهم هو إبليس الشيطان الأول رأس زوايا الشيطنة.

ذلك، وقد تعني ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ - إلى ما عنت - الشياطين المختصين بإضلال الإنس، والآخرين المختصين بإضلال الجن، من إضافة الصفة إلى مفعوله، إذاً فشياطين الجن فريقان مقتسمان بين الإنس والجن ليضلوهم، فكما أن شياطين الإنس يضلون الإنس والجن، كذلك شياطين الجن يضلون الجن والإنس، شيطنات مدروسة موحاة ومستوحاة فيما بينهم، تحلِّق على الإنس والجن أصلية وفرعية.

فالوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس، ذلك الوسواس أعم من الجنة والناس دون اختصاص بجنة أو ناس، وسوسة من الشياطين بمختلف صنوفهم كما إلى صدور الجنة، كذلك إلى صدور الناس.

فهنا ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ توحي أنهم يوسوس بعضهم إلى بعض تضليلاً له أكثر مما هو، ثم تشجيعاً لتضليل الآخرين من الإنس والجن.

ويا ليت أهل الحق اتخذوا ذلك المسلك الصامد لبثِّ الهدى أن يوحي بعضهم إلى بعض مسالك الهدى ليزيدوهم هدىً على هدىً، وليصلحوا لذلك الإيحاءَ إلى الآخرين، تعاوناً على البر والتقوى كما يتعاون الشياطين على الإثم والعدوان ليتحقق الكفاح الصارم في الحق أمام الكفاح العارم في الباطل، دفاعاً صالحاً عن حوزة الحق: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

فالموازنة بين دعاية الحق والباطل تؤمِّن أهل الحق عواناً، وتغلُّب الدعايات الباطلة تشكلّ عليهم خطراً جاسماً حاسماً، ثم تغلُّب الدعايات الحقة تحسم مادة الباطل، وهكذا يجب أن يكون أهل الحق صامدين غير خامدين أو هامدين، ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ..﴾[1].

فكما أن أمر شياطين الإنس والجن شورى بينهم في تلك المواحاة المضلة المدللة في زخرف القول الغرور، كذلك فليكن أمر المؤمنين شورى بينهم في المواحاة المهتدية الهادية بحق القول، بل وأوسع نطاقاً ورفاقاً من أولئك الشياطين تحقيقاً لدولة الحق وتمحيقاً لدولة الباطل.

ذلك والشيطان هو المتمرد عن الحق المتمحض في الباطل أياً كان، وقد يوصف به الحيوان المتمرد والجرثومة الخطرة وكلّ متمرد عن وجه الصواب.

ونكران وجود شياطين الجن كأصل الجن سناداً إلى عدم رؤيتهم ولمسهم كسائر المرئي، نكران جاهل ورمي في الظلام، فإن حوزة الإحساس الخاص لنا، هي ما يمكن أن يحس بحواسنا، دون المواد الرقيقة كالروح والجن والملائكة، وما أشبه.

فأولئك الناكرون المتترسون بالعلوم التجربية على مَ يرتكنون، أعلى علمهم المحدد بالمحسوس من الكون؟ فذلك جهل! فإنه لا يحيط بعالم المحسوس لهم فضلاً عن غير المحسوس بالحواس البشرية، فمن التحكُّم والتبجُّح أن ينفي أحد باسم «العلم» كائنات غير محسوسة به، رغم قاطع البرهان على كونها.

فكما أن من شياطين الإنس غير محسوس كالأنفس الأمارة بالسوء،

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.

الموَسوِسة في الصدور حيث نلمسها نفسياً مهما لا نلمسها حسياً، كذلك شياطين الجن غير المحسوسين بواقعهم، فـ ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[1] بهذه الأبصار البشرية.

فكما أن وحي الفطرة والعقلية ووحي العلم والشرعة الربانية أثبتت وجود الله وهو غير محسوس ولا مدرك بأي إدراك، كذلك وحي الشرعة أثبتت لنا وجود الملائكة والجن وسائر الغيب، ومن ميِّزات الإنسان ومَن أشبهه الإيمان بالغيب قضيةَ براهينه الساطعة.

ذلك وإن معركة الكفاح بين المؤمنين والشياطين معركة مصيرية، تتجمع فيها من ناحية تخطيطات الشيطنات لإمضاء خُطة مقررة مغرِّرة هي معاداة الحق الممثَّل في النبيين وسائر عباد الله الصالحين، يمد بعضهم بعضاً بكلّ وسائل الخداع والإعلام، امتداداً للضلالة الموحاة بين بعضهم إلى بعض، وإلى سائر عباد الله لينضموا إلى حزبهم فيحلِّق الشر على الكون كله.

ولكنه كيد غير طليق فإن ربك لهم بالمرصاد، وإن حملة الرسالات إلهيةً برصيد الرسالة بكلّ المساعي الرسالية - لهم بالمرصاد.

وحين يتقاعد المؤمنون ويتقاعسون فهم الذين يَخسرون أنفسهم ويُخسرون، وأما الله بشرعته وآياته فلا يَخسر، ولكن الله لم يشرِّع شرعته لنفسه أن يتشرع بها ويحققها في نفسه، فإنما ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ ولها حفيظان اثنان: حفيظ رباني يحفظها في قلوب المتشرعين، وحفيظ منَّا نحافظ عليها بمساعينا وكفاحنا الصارم في كلّ ميادين النضال بين الحق والباطل.

فمشهد تجمُّع الشياطين بإيحاءاتهم الشيطانية لتحقيق خُطتهم المقررة

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

المرسومة بمواصلة الإيحاءات والدعايات بزخرف القول غروراً، جدير بأن يسترعي وعيَ أهل الحق ليعرفوا طبيعة هذه الخطة اللعينة وأبعادها، وليكرِّسوا كلّ طاقاتهم وإمكانياتهم للقضاء عليها كما يستطيعون.

كما ومشهد إحاطة المشيئة الربانية بخُطة الشياطين، جدير بأن يملأ قلوب أهل الحق الثقة بالله، تعليقاً لقلوبهم وأبصارهم بتلك القدرة القاهرة الباهرة، وتحليقاً لإمكانياتهم على تحقيق الحق وإبطال الباطل فـ ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[١] و﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[٢]، فلذلك:

﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١١٤﴾:

«أف» إذ يترك الله حكماً يحكم بيني وبينكم ويحكم لصالح رسالتي عليكم - إذاً - غير ﴿ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا﴾ حيث ليس ليحكم، أم هو يحكم بغير صالح لي؟، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾ دون سواه حتى أبتغي للحفاظ عليه وعلي حَكَماً سواه، وقد فصل الكتاب بما لا مزيد عليه ولا منقصة فيه ولا شبهة تعتريه، كتاباً مفصلاً بنفسه، مفسَّراً في نفسه، مبيَّناً ببيناته، قمةً في الفصاحة والبلاغة في آياته، فيه تبيان كلّ شيء وتفصيله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٣].

فذلك الكتاب المفصَّل من لدن حكيم خبير يفصل الآيات، تفصيلاً للحق عن الباطل، دون أيَّة عماية ولا غواية: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[٤] ﴿... لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾[٥] ﴿... لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾[٦] ﴿لِقَوۡمٖ

(١) سورة محمد، الآية: ٧.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٣) سورة هود، الآية: ١.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٧.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٩٨.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٢٦.

﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾[١] ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٢] و﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[٣] وعلى الجملة ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾[٤] لكلّ من ألقى السمع وهو شهيد.

أترى حين يكون القرآن مفصلاً في نفسه وبنفسه، ونوراً ومنيراً وتبياناً لكلِّ شيء فما هو الحاجة إلى مفسر سواه يفصله تفسيراً، اللّهم إلّا بياناً لتأويله وتبياناً!.

ذلك، ولأن ﴿حَكَمًا﴾ هو الحاكم الحكيم الفضل العليم فلا يقضي إلّا بالحق المطلق، وليس هو إلّا الله، أو المرسَل من عند الله فإنه حَكَم بحكم الله.

ومن حَكَميته تعالى إنزال الكتاب مفصلاً، تبييناً لمعانيه كأفضله دون أي تخليط وتداخل، وهو أفضل شهيد على حكمته تعالى الوحيدة غير الوهيدة.

لذلك ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ فإنهم عارفون طبيعة وحي الكتاب ولغته، والقرآن هو القمة المرموقة منه، إضافة إلى بشارات الكتاب المحلِّقة على قرآن محمد ومحمد القرآن ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أيها الناظر إلى القرآن نبياً وسواه، فالنهي بالنسبة للنبي تأكيد للبقاء على إيقانه القمة، من باب التهييج والإلهاب كـ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٥] أو لا تكونن من الممترين فـ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أو من باب (إياك اعني واسمعي يا جارة) فما امترى رسول الهدى ﷺ في رسالته لحظة ما، وقد روي أنه ﷺ عند ما نزل عليه ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الروم، الآية: ٢٨.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٢.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٢.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٤.

﴿جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[١] قال ﷺ: لا أشك ولا أسأل، تدليلاً على أنه لا واقع لشكه وامترائه، فإنما يعني من هذه السلبية المؤكدة غيره شخصياً.

ثم ولغيره تثبيت لدلالة ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ والقرآن نفسه على وحي القرآن، وقد يتأيد بـ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ...﴾[٢] فهنا أيضاً قل ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ أيها الناظر إلى القرآن ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ في هذه الرسالة السامية، وتأكيد النهي هو بمناسبة أكيد الآية القاطعة لهذه الرسالة قرآناً ورسولاً.

إذاً فـ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ...﴾ تحوُّلٌ في الخطاب إلى صاحب الخطاب العتاب.

واستفهام الإنكار هذا ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ...﴾ موجَّه إلى هؤلاء الذين يتطلبون آية على هذه الرسالة السامية، ويكأن القرآن ليس آية، وهو الآية الأم بين كافة آيات الرسالات، فتركه كآية رسالية شاملةٍ تركٌ لآيات الله كلها، أفتريدون أن أبتغي حَكَماً لرسالتي غير الله، وهو الحَكَم عليها بالقرآن؟! وهو أكبر شهيد بيني وبينكم فأنى تؤفكون ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾[٣]!.

ذلك، و﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٤] هي كما هنا استدلال بشاهدي رسالته: القرآن وسائر الكتاب.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾:

إن ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ الدالة على رسالتك العظيمة الغالية، الشاملة لكلّ ما

(١) سورة يونس، الآية: ٩٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤.
(٣) سورة الصافات، الآية: ٨٦.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٤٣.

يحتاجه المكلفون منذ بزوغها إلى يوم الدين، إنها تمت بهذا القرآن العظيم، «تمت.. صدقاً» و«تمت.. عدلاً» فكلّ قضايا الصدق والعدل الرباني مدلولةٌ لكلمات ربك: القرآن ونبيِّه ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ السالفة على أنبيائه رغم أنها كانت محددة لزمن خاص فضلاً عن هذه الكلمة التامة الخالدة.

وهنا ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بإفراد تعني محمداً والقرآن فإنهما كلمة واحدة تحملان هذه الشرعة الأخيرة شرعة وداعية.

صحيح أن كلمات الرب رسولياً ورسالياً على مدار الزمن تامة صدقاً وعدلاً، ولكنها تمامية صالحة لردح من الزمن لكلّ رسول برسالته، وليست تمامية طليقة، فـ «تمت» هنا تعني التمامية الطليقة التي ليس فوقها تمام، فليس معها أو بعدها كلمة رسولية أو رسالية إلى يوم الدين، إذ لا مبدل لهذه الكلمة إلهياً ولا خُلقياً، مهما كان لسائر الكلمات الربانية مبدل إلهي، فـ ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ تستغرق أي تبديل للكلمة الأخيرة، وتختص سلب التبديل الحق في سائر كلماته بغير الإلهية حيث تبدَّلت إلهياً، كما وتبدلت بشرياً بغير حق، ولكن هذه الكلمة لا مبدل لها إلهياً، ولا بشرياً لا حقّاً ولا باطلاً إذ لا تحريف فيها ولا تجديف.

أجل فلا مبدل لها ربانياً فضلاً عن مبدل سواه ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ مقالات الممترين ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالاتهم، سمعاً وعلماً بكلّ مجالاتهم وبما يقوله أهل الحق ويعلمون ويعملون.

فهنا ﴿كَلِمَتُ﴾ - جنساً - تعم كافة الدالات والدلالات الرسولية والرسالية أمّاهية، الدالة على كامل الربوبية تكوينية وتشريعية في هذه الرسالة الأخيرة و﴿رَبِّكَ﴾ - دون «رَبِّ الْعالَمِينَ» وما أشبه - تلمح إلى بالغ الربوبية، المتمثلة في التربية المحمدية رسولياً ورسالياً فإنها القمة العالية منها، فـ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ إذاً ختمٌ للتربيات الربانية في كلّ حلقاتها وحقولها،

فلا تمام بعدها ولا تبديل، مما يبرهن على خاتمية خاتم النبيين رسولياً وخاتمية القرآن رسالياً، وكلّ ذلك ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ فليس بعد تمام كلمت ربك صدقاً وعدلاً إلّا كلمة الشيطان كذباً وظلماً، وهي كافة المختلقات الزور والغرور من كتابات وسواها بعد القرآن مما يدعى كونه وحياً.

أجل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ في كلّ مصاديقها الصادقة لفظية أو عينية، فحين يكون المسيح كلمة من الله كما هو رسوله جمعاً بين كلمتي الرسالة والآية الرسالية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾[١] فمحمد ﷺ بقرآنه العظيم أحرى تماماً وكمالاً وختماً للكلمات الرسولية والرسالية، فلا آية بعد القرآن كما لا رسالة بعد رسول القرآن.

وحين ﴿ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[٢] فابتلاء محمد ﷺ بكلمات أنبل وأعلى حيث تمت بها الكلمات.

إذاً فيا متمم الكلمات في نفسه وفي كتابه، في ابتلاءاته وكلّ كلماته ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾[٣]، وذلك، لأنها ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ فكما أنك ﴿أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[٤] والعارفين لربك بتربيتك القمة، كذلك ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ لك ولكلّ العالمين إلى يوم الدين.

فذلك التمام تمام في كلّ حقوله، زمناً وكمالاً وحالاً ومآلاً وعلى أية حال، والكلمة العليا في هذه الرسالة هي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ حيث تحلّق على كلّ جنباتها لأتم درجاتها ومنها كسر الأصنام بكلّ صنوفها وصفوفها، فقد

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٧.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٨١.